

إرهاصات الطب النفسي الإيقاعية التطورية (من نقدي للنص الأدبي)

نبض المكان في الوعي البشري بين "لحس العتج" و "فنديل أم هاشم" 1

نشرة "الإنسان" 2018/06/04

السنة العاشرة - العدد: 3929



yehiatrakhawy@hotmail.com

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

مقدمة:

ما زالت إشكالية التعرف على ماهية الوعي تمثل تحدياً على كل المستويات، وقد أشرت إلى ذلك مراراً، وإلى الصعوبات التي عايشتها حتى بعد محاولة قراءة رأي "هنري إي" وأيضاً بعض كتابات الوعي عند هيجل مروراً بكل ما يعن لي من فروض واحتمالات وتنظير ونظريات حتى انتهيت إلى فهم أوسع من خلال تعدد مستويات الوعي بعدد أنواع العقول "دانيال دينيت" (2) ولكن ظل الجدل بين هذه العقول والتباديل والتوافيق بالطول والعرض تبعدني عن إرواء عطشى لمعرفة ماهيته تحديداً. وأنا أعيد الآن قراءة هذا النص الذي كتبه نقداً منذ عقد من الزمان، اكتشفت أن النص الأدبي ألهمني لمحات من الربط بين المكان والوعي بقدر لم يخطر لي من قبل في تنظيري العلمي مثلما سبق أن خطر لي الربط بين الزمن والوعي.

أنهيت نشره أمس بتساؤل يقول:

"هل يحرك هذا الوصف الوارد في النقد تلقائياً بعض ما يمكن أن تعنيه "هنا" كما نركز عليها في

العلاج الجمعي في: "هنا والآن"؟

وإذا بي أجدني قد رددت على هذا التساؤل ضمناً حين تناولت العلاقة بين المكان والوعي، وبين

الوعي والمكان في هذا العمل النقدي كما يلي:

المقتطف (2)

حضور المكان في الوعي (من نص النقد)

..... لست متأكداً إن كنا نعرف حقيقة معنى: "استحالة وجودنا إلا في مكان ما"؟، إن أي شيء حي، أو غير حي، لا يوجد منفصلاً عن المكان الذي هو فيه، لكن الإنسان يتميز، بالإضافة، بقدرته على الوعي بالمكان ظاهرياً، بدرجات مختلفة. من ضمن خداعنا لأنفسنا رحنا نتصور أننا نعرف ما هو المكان، وأننا نعاش علاقته به بوضوح أكثر من الزمن، وبالتالي حاولنا أن نفهم إشكالية الزمن من منطلق المكان، فقد تصورنا أننا كما يمكننا أن نتجول في المكان ذهاباً وجيئة، شرقاً وغرباً، يمكننا أن نتجول في الزمن بنفس الطريقة، وبهذا نكسر سجن الزمن التبعي، الذي لكي ندركه، علينا أن ننقل عنه لنتبعه أو نقيس خطواتنا به. المكان ليس بهذه البساطة التي تصورناها لنفهم الزمن من خلاله. المكان ليس مساحة للتجوال ولا هو تعيين للزمن، المكان هو الذي يوضع العلاقات بيننا وبعضنا، وبين الأشياء وبعضها، وبيننا وبين الأشياء. العلاقة بالموضوع، هي "علاقة بالآخر في مكانه"، العلاقة بالموضوع تشمل: العلاقة بالأشياء في حضورها وغيابها وتغيرها، في جديها المتجدد بوعي

ما زالت إشكالية التعرف على ماهية الوعي تمثل تحدياً على كل المستويات

انتهيت إلى فهم أوسع من خلال تعدد مستويات الوعي بعدد أنواع العقول "دانيال دينيت"

..... لست متأكداً إن كنا نعرف حقيقة معنى: "استحالة وجودنا إلا في مكان ما"؟، إن أي شيء حي، لا يوجد منفصلاً عن المكان الذي هو فيه، لكن الإنسان يتميز، بالإضافة، بقدرته على الوعي بالمكان ظاهرياً، بدرجات مختلفة

من ضمن خداعنا لأنفسنا رحنا نتصور أننا نعرف ما هو المكان، وأننا نعاش علاقته به بوضوح أكثر من الزمن

حاولنا أن نفهم إشكالية الزمن من منطلق المكان، فقد تصورنا أننا كما يمكننا أن نتجول في المكان ذاتيا وجيئة، شرقا وغربا، يمكننا أن نتجول في الزمن بنفس الطريقة، وبهذا نكسر سجن الزمن التتبعي،

المكان ليس بهذه البساطة التي تصورناها لنفهم الزمن من خلاله. المكان ليس مساحة للتجوال ولا هو تعيين الزمن، المكان هو الذي يوضع العلاقات بيننا وبعضنا، وبين الأشياء وبعضها، وبين الأشياء.

العلاقة بالموضوع، هي "علاقة بالأخر في مكانه"، العلاقة بالموضوع تشمل: العلاقة بالأشياء، هي حضورها وتغيابها وتغيرها

إن تغير المسافة باستمرار فيما بيننا وبين الموضوع هو أمر جوهري بالنسبة للوعي عامة والوعي بالمكان أيضا

يختلف الوعي بالمكان بحسب درجة إدراك العلاقات، أو إدراك الحركة، وكيفية تغير المسافات.

يَتَشَكَّل، في حركية إيقاع حيوى نام ينطلق من كل ذلك إلى الممكن المجهول: إذ يتنوع باستمرار مع حركية الجدل المتصاعد عبر دورات الإيقاع الحيوى.

إن تغير المسافة باستمرار فيما بيننا وبين الموضوع هو أمر جوهري بالنسبة للوعي عامة والوعي بالمكان أيضا، يختلف الوعي بالمكان بحسب درجة إدراك العلاقات، أو إدراك الحركة، وكيفية تغير المسافات.

حين حضرني المكان هكذا في رواية "لحس العتب" (لخيري شلبي) بالإضافة إلى حضور تشكيلات التطبيق الشعبي، الإيجابية والسلبية، تصورت أن قراءة مقارنة مع "قنديل أم هاشم" (ليحيى حقي) قد تكشف الاثنين أجمل وأبدع.

في رواية "لحس العتب" كان وصف المكان من خلال العلاقات السلوكية والرمزية والموضوعاتية هو الحاضر غالبا، في حين أنه في قنديل أم هاشم كان تناول يتم من خلال امتدادات المكان والناس في الوعي، وبالعكس، طول الوقت، فضلا عن الامتداد في المكان: "الغيب" "المابعد" المكان عند كل من شلبي وحقي في هذين العملين كان حاضرا طول الوقت بكل التفاصيل، سواء ضاق عند شلبي حتى كاد ينزوى تحت الترابيزة، أو حولها، أو اتسع عند حقي حتى تخطى مقام السيدة وميدانها إلى المطلق اللامتناهي. أين المكان هنا وهناك من الوعي البشري، وما العلاقة بينهما؟ (ثم كتبت في نفس النقد)

.... في مرحلة سابقة كنت أشبه الوعي بالوساد اللازم لكي تنزرع فيه سائر الوظائف النفسية الأخرى، وكأنه الأرضية الضرورية لأشكال حادثه، ثم تبينت أن هذه التفرقة بها من التعسف والاختزال ما يخل بتقديم الوعي الإنساني بحضوره الجوهري في كل الحياة العقلية والنفسية، في كل الوجود. الوعي عندى الآن هو عمق أى سلوك يتبدى لنا، هو البعد المشتمل لما يصلنا ظاهرا، وهو متعدد بعدد الظواهر، أو حتى بعدد جزئيات الظواهر، بقدر ما هو مشتمل لها جميعا على مستويات مختلفة، من هنا لم يعد يصلح أن نختزل الوعي إلى ما يشبه "السطح الجاهز لما يحتويه"، كما يوحى لفظ "الوساد" أو "الأرضية"، (كما تصوّرت ونظّرت سابقا) الوعي البشري هو الأقدر على أن يكون المقابل الحيوى داخلنا للمكان الخارجى. العلاقة بين حركية الوعي كمكان حيوى داخلى، وحركية المكان كحضور موضوعى خارجى، هي علاقة جدلية مستمرة. (ما زلنا في نفس النقد)

في "لحس العتب" نتابع حضور الترابيزة في الوعي بما حولها من مندره وما جاورها من "خزنة"، وما ملأها من حركة ناس وأزمنة، يحتلون هذا الحيز من الأرض، يدخلون ويخرجون على فترات، لكن يبقى المكان هو الأصل، هو الكيان الحى المحيط والترابيزة فى مركزه.

يقع هذا المكان فى دار متأكلة فى قرية من قرى بندر دسوق، لكنه يقع أكثر فى "الذاكرة الوعى"، وليس الذاكرة شريط التسجيل "...هناك هناك فى أبعد ركن من ذاكرتى أرانى طفلا فى حوالى الثالثة من العمر أرتع زحفا على سطح هذه الترابيزة رائحا غاديا" (ص 9) الذاكرة هنا مكان يُزار، لا معلومة تُستعاد، والترابيزة هى مجال محيط، وليست أداة تُستعمل. حجم الترابيزة (أكثر من مترين فى متر ونصف)، وموقعها (ترابيزة الوسط) يدلان على أنها مجال محورى أكثر منها شيئا للاستعمال.

المتابع لزحف الأحياء والأشياء (وقد صيرها الراوى أحياء) فوق، وتحت الترابيزة، وحولها، لا بد أن يشعر أنها أصبحت وكأنها الأرض الكروية، وأحيانا المجموعة الشمسية. أرجل الترابيزة النحاسية تقول أيضا إنها كائن حى "... شغل يدوى، بأرجل مخروطية عليها نقوش وانبعاجات وتكرورات تنتهى فوق الأرض بأقدام على شكل حوافر من النحاس إن تأملتها قليلا تبينت أنها على شكل سباع كثيفة الشعر غليظة الظافر..." (ص 8). ها هى الترابيزة تعلن عن رسوخها من جهة، وأصل قوتها وتوحشها وسيطرتها من جهة أخرى، فإذا أضفنا إلى ذلك كيف كان الناس والأطفال خاصة يحسبون أن هذه

...في مرحلة سابقة كنت
أشبه الوعي بالوساد اللازم
لكي تنزوح فيه سائر
الوظائف النفسية الأخرى،
وكانه الأرضية الضرورية
لأشكال حادثة

لم يعد يصلح أن نختزل الوعي
إلى ما يشبه "السطح الجاهز
لما يحتويه"، كما يوحى لفظ
"الوساد" أو "الأرضية"، (كما
تصوّرت ونظرت سابقاً)

العلاقة بين حركية الوعي
كمكان حيوي داخلي،
وحركية المكان كمحور
موضوعي خارجي، هي علاقة
جدلية مستمرة

الأرجل النحاسية هي من الذهب، شعرنا كم كانت هذه الترابيزة "قيمة" في ذاتها من أكثر من ناحية.
قيمة الترابيزة المعلنة كانت في اتجاه آخر: إنها دليل على العز والأصل، وبالتالي لا يمكن
الاستغناء عنها مهما كان الثمن، بدا التنازل عنها لأى سبب وبأى مقابل بمثابة تسليم لواقع مرفوض،
يتمنى المصاب به، رب الدار (وأهل الدار)، أن يكون واقعا مؤقتا، وإن كان الأب يعرف من داخل
داخله، ومن همس وتصريح من حوله، أن ذلك محال، وأن ما آل إليه الحال من حاجة وحرمان هو
واقع دائم راسخ لا حل له، لكن ظلت الترابيزة تمثل قيمة أهم في موقعها المحورى الذى تدور حوله
الحياة وتتشكل الأحداث، دون أن تنفصل عنه.

ويعد

ننقل الأسبوع القادم إلى ما يقابل ذلك فى "قنديل أم هاشم" عند يحيى حقي، لكن دعونا نثبت البداية
(بداية نشرة السبت) لعلنا نحفز المواصلة.

المكان "يمتد" فى قنديل أم هاشم

فى المقابل: تتمحور أحداث رواية قنديل أم هاشم حول مكان محورى أيضا له حضوره ودلالاته،
هو مقام السيدة زينب، بما حوله وما يدور بهم ويدورونه، الميدان والناس كتلة واحدة. المكان، هنا، بما
فيه من ناس وأحوال، هو جاهز للمقابلة بالغرب بكل ما يعنيه ذلك "هل فى أوربا كلها ميدان كالسيدة
زينب؟ "..... مكان الشفقة والمحبة عندهم بعد العمل وإنهاء النهار يروحون بها عن
أنفسهم كما يروحون عنها بالسينما والتياترو" (ص 113). الراوى أو إسماعيل أو الكاتب (فى قنديل أم
هاشم) سرعان ما يستدرك (مثلما فعل كثيرا طول الرواية قائلاً): "ولكن لا. لا. لا. من يستطيع أن
ينكر حضارة أوربا وتقدمها وذل الشرق وجهله ومرضه".

.....

(ونكمل الأسبوع القادم لمن يستطيع معنا صبورا)

إرتباط كامل النص:

www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD040618.pdf

قريباً... 2018/06/13

" شبكة العلوم النفسية العربية " تطفي شمعتهما الخامسة عشرة
وتدخل عامها السادس عشر (2003 - 2018)

بهذه المناسبة يطيب لنا ان نطلب من اطباء والاساتذة تكريم كتابة كامة هي السجل الذهبي للشبكة للعام
2018 و المشاركة في ابداء الرأي لتطويرها الشبكة (يصدر في موعد الذكرى الخامسة عشرة لاطلاق الشبكة

على الويبج)

رابط المشاركة:

<http://www.arabpsynet.com/propositions/PropForm.htm>

او على البريد الالكتروني

arabpsynet@gmail.com

الكتاب الذهبي للشبكة للعام 2017

<http://arabpsynet.com/GoldBook/eBArabpsynet14YearsGoldBook.pdf>

سجل لأطباء النفسانيين

www.arabpsynet.com/propositions/ConsPsyGoldBook.asp

سجل لعلماء النفس

<http://arabpsynet.com/propositions/ConsGoldBook.asp>